منهج الصحاح

بين

الإبداع والاتباع

د/ عبد محمد الطيب

يتلخص النظام الذى سار عليه الجوهرى (٣٩٨هـ) فى ترتيب المواد التى اشتمل عليها معجمه « تاج اللغة وصحاح العربية » فى تقسيمه إلى أبواب تقوم على ملاحظة أواخر الكلمات وقوافيها ثم تقسيم الأبواب إلى فصول تقوم على مراعاة أوائل الكلمات وصدورها ؛ فإذا ما اشتركت الكلمات فى القوافى والصدور كان حشوها أساس التفرقة بينها .

فالكتاب مقسم إلى أبواب بعدد حروف الهجاء ، والأبواب إلى فصول، بعدد حروف الصدور ، والفصول إلى مواد بعدد الحروف التى تقع حشواً .

وكل من الأبواب والفصول والمواد رتبت ترتيباً ألفبائياً على النظام الذى ابتكره نصر بن عاصم(١) (٩٨ هـ) وهو الترتيب المعمول به الآن ، فوقع الكتاب فى ثمانية وعشرين بابا بعدد حروف الهجاء العربى وإن كان قد ضم الواو والياء فى باب واحد فقد خص الكلمات المختومة بألف مجهولة الأصل بباب سماه باب الألف اللينة .

---

(١) د . عدنان الخطيب المعجم العربى بين الماضى والحاضر

كما وقع الباب الواحد فى ثمانية وعشرين فصلا بعدد حروف الهجـــاء مع تقديم فصل الواو على فصل الهاء .

من هذا يتضح لنا أن نظر الجوهرى أول ما وقـع وقـع على نهاية الـكلمة وهى المسماة بالقافية أخذاً من تسمية العروضيين ورغبة فى خدمة الأدباء من شعراء يطلبون وحدة القافية فى أبيات القصيدة الواحدة ومن كتاب يميلون إلى السجع ويسعون إلى الـكلمات المتحدة النهايات تحقيقاً لوحدة الفواصل .

ولمـا كان هذا هو الأساس الذى بنى عليه الجوهرى تبويب معجمه أطلق الباحثون على هذا النظام اسم نظام القافية .

غير أنه عند التحقيق يتضح لنا أن نظره لم يتوقف عند النظر إلى نهايات الـكلمات ، بل تعداها إلى صدورها التى جعلها فصولا ليميز بين الكلمات المتفقة فى القوافى فالـكلمات: أرب ، جلب ، حلب ، خلب ، دأب ، ذرب ، سكب ، شرب ، ضرب ، طرب ، عرب ، غرب ، قرب ، كتب ، نوب ، هرب ، وهب ، إن اتفقت فى الباب لأن حرف النهاية فيها واحد فقد اختلفت فى الحرف الأول فوقعت فى فصول مختلفة هى فصول الهمزة ، الجيم ، الحاء ، الخاء الدال ، الذال ، السين ، الشين ، الضاد ، الطاء ، العين ، الغين ، القاف ، الـكاف ، النون ، الهاء ، الواو ، على الترتيب السابق .

بل لم يكتف بالنظر إلى قوافى الـكلمات وصدورها فتعدى ذلك إلى الحشو ليفرق بواسطته بين الـكلمات المتفقة فى حرفى الطرفين دون أن تـكون من عائلة لغوية واحدة . فالمواد ، كأب ، كبب ، كتب ، كثب ، كذب ، كرب ، كسب ، كعب ، كلب ، كوب ، تتفق فى حرف الباب (الباء) والفصل (الـكاف) فكان أساس توزيعها فى داخل الفصل الواحد هو حرف الحشو الذى فرق به بين المواد اللغوية المنتمية إلى باب واحد وفصل واحد .

ومن هنا كان اقتراحى أن يكون الاسم اللائق بهذا النظام هو مراعاة طرفى الكلمة وحشوها(١) ، لمطابقته له تمام المطابقة .

ومن هنا أيضاً رأينا أن تسمية هذا النظام بنظام القافية تسمية غير دقيقة إلا إذا عددناها من قبيل إطلاق الجزء على الكل .

غير أن المصطلحات العلمية ينبغى أن تنأى ما أمكن عن التسميات المجازية مادام فى الإمكان إطلاق اسم لا تجوز فيه ولا مجاز .

ومهما يكن من تسمية هذا النظام الذى سار عليه الجوهرى فى صحاحه فإننا نود الانتقال إلى مناقشة أخرى تكشف عن مبتكر هذا النظام .

لقد اعتقد كثير من الباحثين أن صاحب هذا النظام ومبتكره هو الجوهرى (٣٩٨ هـ) وأنه طبقه فى معجمه الموسوم بتاج اللغة وصحاح العربية(٢) .

ولعل السبب الذى جعل الباحثين يعتقدون ذلك هو ادعاء الجوهرى فى مقدمة صحاحه أنه أسبق المعجميين إلى هذا النظام فقد قال : « وأودعت هذا الكتاب ماصح عندى من هذه اللغة ... على ترتيب لم أسبق إليه »(٣) ؛

هذا مع غياب ديوان الأدب للفارابى (٣٥٠ هـ) الذى مكن لهذا الادعاء من أن يشيع بين الناس ويجد رواجاً ، فقد ظل الفارابى مغموراً وظل معجمه مجهولا دهراً طويلا حتى لدى المشهورين ممن ألفوا فى اللغة وأعلامها من القدماء الذين ظنوا أنه الفارابى الفيلسوف المشهور ، كما ضللهم عنوان المعجم

---

(١) انظر رسالتنا لنيل الدكتوراه « الصغانى » دراسة لآثاره اللغوية ص ٢٩٨

(٢) الصحاح « مدارس المعجمات العربية أحمد عبد الغفور عطار ص ١٣٣ ، المعجم العربى : نشأته وتطوره د/حسين نصار ص ٤٨٦

(٣) مقدمة الصحاح للجوهرى جـ١ ط بولاق

فظنوا أنه من كتب الأدب ولا يمت إلى اللغة بصلة نظراً لأنهم لم يطلعوا عليه (١) لعدم ذيوعه(٢).

وظل الأمر كذلك إلى أن اهتدى الدكتور أحمد مختار عمر إلى الحقيقة فى دراسته لمعجم ديوان الأدب والتى قدمها لنيل رسالة الماجستير من كلية دار العلوم سنة ١٩٦٢ ، فأسفرت هذه الدراسة عن حقائق كانت مجهولة ، وصوبت مفاهيم كانت خاطئة تبين منها أن نظام الباب والفصـــل بل نظام مراعاة طرفى الكلمة وحشوها ليس من ابتكار الجوهرى بل كان الجوهرى فى هذا النظام محاكياً لنظام خاله الفارابى فى « ديوان الأدب » الذى ابتكر هذا النظام(٣) وكان له فضل السبق إليه .

حقيقة إن نظام الفارابى كان متعدد الملاحظ ، وكانت الأمور التى راعاها فى تنظيم كلماته متعددة إلى الحد الذى يبعد به عن الهدف المرسوم له ، فقد كان يهدف إلى توفير الجهد على الباحث ، فإذا به يضيع وقته وجهده ؛ إذ كان يقوم على ملاحظة نوع الكلمة اسما وفعلا ، وإلى حروفها صحيحة أو معتلة ونوع الصحيح سالما أو مهموزا أو مضعفا ونوع المعتل مثالا أو أجوف أو ناقصا وبنيتها ثم طرفيها وحشوها .

فجاء الجوهرى واكتفى بالنظر إلى طرفيها وحشوها ، فهل يعد ذلك الاكتفاء نوعا من الإبداع والابتكار ؟!

والغريب أن الجوهرى يردد فى مقدمة صحاحه ماسبقه إليـــه خاله من

---

(١) تصدير د . إبراهيم أنيس للدراسة التى قام بها د . أحمد مختار عمر بين يدى تحقيق ديوان الأدب ص « ز »

(٢) انظر رسالتنا الصغانى دراسة لآثاره اللغويه ٣٠٠

(٣) مقدمة الدكتور أحمد مختار عمر محقق ديوان الأدب وانظر أيضا البحث اللغوى عند العرب للمؤلف نفسه ص ١٦١ ؛ ١٦٢

دعوى ابتكار النظام المعجمى الذى سار عليه فقد قال الفارابى فى مقدمة ديوان الأدب : « أنشأت ... كتابا عملت فيه عمل من طب لمن حب مشتملا على تأليف لم أسبق إليه وسابقا بتصنيف لم أزاحم عليه ... (١) ألا ترى أنها هى هى عبارات الجوهرى فى مقدمة الصحاح ؟

إن هذا يعنى أن الجوهرى أتبع خاله فى جزء من منهجه كما اتبعه فى دعوى ابتكار هذا المنهج ؛ وإذا كان هناك خلاف بين منهجى ديوان الأدب للفارابى والصحاح للجوهرى ، فذلك يبدو فى تخلى الجوهرى عن بعض الأمور التى راعاها الفارابى كتخليه عن مراعاة اسمية الكلمة وفعليتها وتخليه أيضا عن نوع الكلمة من حيث الصحة والاعتلال حيث كان المنهج كفيلا ببيان الصحيح بأنواعه من المعتل بأنواعه ، وتخليه كذلك عن مراعاة أبنية الأسماء .

لقد تعددت الأمور التى راعاها الفارابى فى تنظيم المادة اللغوية فى « ديوان الأدب » ليحقق الترتيب الذى يوفر على الباحث جهده ويحقق له سهولة البحث لذا كان حقيقاً بأن يفخر بدقة نظام معجمه ؛ هذه الدقة التى تجلت فى وضعه الكلمات فى مظانها من المعجم « ليجدها المرتاد لها فى بقعة بعينها رابضة من غير نهى مطية ، أو إدآب بحث » (٢)

ويتلخص هذا النظام فى فصله بين الأسماء والأفعال وتقديمه الأسماء على الأفعال ثم فى مراعاة بنية كل منهما ، ثم فى مراعاة الحروف التى يتكون منها فعقد للسالم بابا يليه المهموز المضاعف فالمثال فالأجوف فالناقص مع تقديم الواوى على اليائى وتخليص هـــذا من ذاك ، ومن هنا يتضح لنا أنه سبق الفيروزابادى إلى فصل الواوى من اليائى خلافا لما ادعاه الفيروزابادى (٣) .

---

(١) ديوان الأدب ١/٧٣ .

(٢) مقدمة ديوان الأدب للفارابى جـ١ ص ٤١ ط الهيئة العامة للمطابع الأميرية تح د. أحمد مختار عمر سنة ١٩٧٤م (٣) مقدمة القاموس جـ١ ص٦

ثم فى مراعاة الحكم فيقدم المجرد على المزيد ، كما يراعى عدد الحروف المزيدة وأماكنها فيقدم المزيد بحرف على المزيد بحرفين وهذا على المزيد بثلاثة كما يقدم الذى وقعت فيه الزيادة أولا على ما وقعت فيه وسطا وهذا على ماوقعت فيه آخرا. فالمزيد بالهمزة أو الميم قبل المزيد بتضعيف العين وهذا قبل ماوقعت فيه الزيادة بين العين واللام ليأتى أخيرا ماوقعت فيه الزيادة بعد اللام.

وهكذا تعددت أقسام الكتاب وتنوعت أبوابه وفى داخل كل قسم من هذه الأقسام كان يراعى طرفى الكلمة وحشوها فيقدم ما قافيته الهمزة مثلا على ماقافيته الباء فإذا ما اتفقت الكلمات فى قوافيها راعى صدورها فقدم ماصدره الهمزة على ماصدره الباء وهكذا ، فإذا ماتفقت الكلمات فى القوافى والصدور راعى حشوها فقدم ماحشوه أسبق فى الترتيب الالفبائى من حشو المشارك له فى الطرفين .

وهذا المنهج وإن اتسم بالدقة ومكن المعجمى من وضع كل كلمة فى مكانها إلا أنه منهج متعدد الملاحظ مما يضطر الباحث إلى أن يراعى فى البحث عن الكلمات الامور التى راعاها مؤلفه . وقد يكون الباحث على جهل ببنية الكلمة فلا يدرى أين توجد بل أكثر من ذلك قد يكون على جهل بنوعها اسما أو فعلا!

ومن أجل ذلك خلص الجوهرى صحاحه من هذه الأمور التى تعسر على الباحث ملاحظتها من حيث أريد التيسير عليه . فاكتفى بمراعاة طرفى الكلمة وحشوها عند ترتيب كلمات معجمه دون مانظر إلى أى شىء آخر فالكلمات المتفقة فى قوافيها نجدها فى باب واحد ، وصدورها تحدد الفصل داخل الباب، وحشوها يحدد المادة المعجمية داخل الفصل الواحد .

فالجوهرى لم يكن مبتكرا فى منهج الصحاح وإنما كان متبعا لمنهج خاله فى جزئية من جزئيات هذا المنهج رأى بذكائه أنها كفيلة بتحقيق راحة الباحث فاستغنى عما عداها حتى لا تتشعب الطرق أمامه فيضل السبيل إلى مايريد .

وإذا كانت مراعاة القوافى فى الكلمات هو أساس تقسيم المعجم إلى أبواب ومراعاة صدورها هو أساس تقسيم الأبواب إلى فصول عند الجوهرى .

وإذا كان الفارابى قد سبق ابن أخته إلى ذلك فإن شيئا من هذا النظام قد سبق إليه كلا الرجلين .

فنظام القافية أى مراعاة أعجاز الكلمات وبناء الأبواب عليها مرتبة على الترتيب الألفبائى المعهود وكان معروفا قبل أن يهتدى إليه الفارابى بما لا يقل عن قرن من الزمان .

لقد سبقهما إلى ذلك أبو بشر اليمان بن أبى اليمان البندنيجى (٤٨٢هـ) (١) فى معجمه المسمى بـ «التقفية فى اللغة» (٢) والمعجم كما يتضح من عنوانه نظمت كلماته بالنظر إلى الحرف الأخير والمسمى بالقافية ، ولقد صرح بذلك البندنيجى فى مقدمة معجمه الذى سماه بالتقفية لأنه كما يقول مؤلف على القوافى وهى نهاية الألفاظ . وقد نظر البندنيجى فى الكلام فوجده دائرا على الحروف الثمانية والعشرين الموسومة بألف باتا ثا عليها بناء الكلام كله عربيه وفصيحه فهى محيطة بالكلام لأنه ما من كلمة إلا ولها نهاية إلى حرف من هذه الثمانية والعشرين حرفا (٣) ، أى أن البندنيجى رأى أن اتباع طريقة القافية يؤدى إلى إحصاء اللغة إحصاء تاما وهو هدف كل معجمى بدءا من الخليل بن أحمد فى كتابه العين ، وإن كانت طريقة القافية تمتاز من طريقة التقليبات بنوعيها بإعفاء المعجم من التراكم والتزاحم الحادث بسبب هذه التقليبات ، فضلا

---

(١) الفهرست لابن النديم ص٨٤ معجم الأدباء ياقوت الحموى ٢٠/٥٦ أنباه الرواة للقفطى ٤/٧٢ طبقات ابن شهبة ٢/٢١٠ .

(٢) حققه الدكتور خليل إبراهيم العطية وطبع فى بغداد ١٩٧٨

(٣) مقدمة التقفية للبندنيجى ط بغداد ١٩٧٨

عما فى نظام القافية من إعفاء الباحث من معرفة النظام الصوتى المطلوب فى نظام التقليبات الصوتية الذى اتبعه الخليل ابن أحمد وا تبعه الأزهرى فى التهذيب وأبو على القالى فى البارع والصاحب ابن عباد فى المحيط وابن سيده فى المحكم .

ولقد نظر البندنيجى فى كلمات العربية وماتنتهى به من حروف ثم قسم كتابه إلى أبواب بحسب هذه النهايات فوقع الكتاب فى ثمانية وعشرين بابا بعدد حروف الهجاء . وإنما فعل ذلك بتيسير على الباحث فى المعجم قال إنه بعد أن « جمع ماقدر عليه وأدركته معرفته ، واجتمع لديه قدر كبير من كلمات اللغة أراد أن يرتبه أبوابا قال « ونظرنا فى نهاية الكلام فجمعنا إلى كل مايشاكلها مما يحتاج إلى معرفتها من الكتاب نظرت إلى آخرها مما هو من هذه الحروف فطلبته فى ذلك الباب الذى هى منه ، فانه يسهل معرفتها إن شاء الله »

وإلى جانب هذه السهولة ـ وهى من أهم أهداف المعجمى ـ وإن اختلف المعجميون فى مدى تحقيقها ، كان يهدف إلى تذليل القوافى لشداة الأدب من الشعراء حيث يجدون طلبتهم من القوافى طوع إرادتهم ، ومن الناثرين الذين يميلون إلى السجع فوفر بهذا الكتاب على الأدباء كثيرا من الجهد الذى كانوا ينفقونه بحثا عن القافية فى شعر أو الفاصلة فى السجع فكان كما قال لاغنى لأحد من أهل الأدب عنه » .

فنهج « التقفية » قائم على ترتيب ألفاظ اللة حسب نهايتها فالكلمات برج حرج خرج ، درج ، مرج ، ضرج ، عرج ، فرج ، مرج ، هرج . نجدها جميعا فى باب الجيم دون ترتيب معين داخل الباب الواحد ، وأبواب الكتاب الثمانية والعشرين مرتبة حسب الترتيب الألفبائى المعروف إلى زماننا هذا والذى وضعه (١) نصر بن عاصم (٨٩ هـ) فكان أول أبواب التقفية باب الألف الذى اشتمل على الكلمات المنتهية بالهمزة والألف المقصورة والألف

---

(١) انظر المعجم العربى د . عدنان الخطيب ص ١٤

الممدودة . قال : « وأول ما أبتدىء فى كتابنا هذا الألف لأنها أول الحروف وعلى ذلك جرى أمر الناس ثم نؤلفه على تناسقه » .

ويحاول أن يجد بعض الباحثين مسوغا لهـذا الصنيع أعنى جمع الألف المقصورة والممدودة — وهما دائماً منقلبتان عن أصل واوى أو يائى مع الهمزة فقـال « لعله فعل ما فعل لهـدف تعليمى فعـد الألف اللينة (المقصورة) والمتحركة (المهموزة) سـواء فكان همه ترتيب الألفاظ وفق أواخرها ولم يدر بخلده أن يرتبها وفق أصولها الواوية أو اليائية كما فعل من تلاه كالجوهرى مثلا (١) » .

هذا ولا يخلو نظام الترتيب المعجمى الذى اتبعه البندنيجى فى التقفية من أساس آخر قام عليه فراعاه إلى جانب مراعاة القافية . ذلك أنه راعى أبنية الكلمات بالإضافة إلى قوافيها فالثلاثى ساكن الوسط يأتى فى مكان لا يشاركه فيه محرك الوسط الذى يجمعه فى مكان آخر ففى باب العين مثلا تأتى معا الكلمات الساكنة الوسط أمثال الذرع والقمع والطبع والفرع والقرع ، كما تأتى معا الكلمات المحركة الوسط أمثال الشرع والقمع والطبع والهزع والفزع والكلمات الموازنة لفعيل كالربيع والجميع والسريع والسميع والنجيع تكون فى مكان آخر مع تسمية كل مجموعة من هذه المجموعات بقافية مع أنها جميعا تشترك فى قافية واحدة وهى قافية العين .

ولم يراع البندنيجى سوى هذين الأمرين فى ترتيب كلمات معجمه ، فما على الباحث الذى يريد الكشف عن معنى كلمة منتهية بالعين إلا أن ينقلب بين ركام الكلمات المختومة بالعين حتى يصل إلى المطلوب وقد يكون فى أول

---

(١) د . خليل إبراهيم العطية — التقفية فى اللغة للبندنيجى منهجه ومصادره مجلة المورد العراقية مجلد ٢ عدد ٤ سنة ١٩٧٦ م ص ٣٠١ .

الكلمات أو آخرها، وبهذا الصنيع لم يعف الباحث من مشقة البحث ولم يذلل له صعوبته إلا بقدر جد محدود حين أعفاه من تزاحم المواد وتقلباتها فى نظام التقلبات بنوعيه وحين أعفاه من المعرفة الصوتية المسبقة التى يتطلبها نظام التقلبات الصوتية .

ومما تقدم يتضح لنا أن مراعاة نهاية الكلمات فى تنظيمها فى المعجم لم يكن من إبداع الجوهرى أو ابتكار خاله الفارابى بل سبقهما إليه البندنيجى الذى طبقه فى معجمه « التقفية فى اللغة » وربما يكون قد استوحاه من حاجة الشعراء الذين يبحثون عن كلمات متفقة فى الحرف الأخير ليجعلوها قوافى تنتهى بها أبياتهم . وكذلك من حاجة الكتاب الذين يسجعون فيما يكتبون فيبحثون عن هذه الكلمات ليجعلوها فواصل تنتهى بها جملهم .

وما قلناه عن أسبقية البندنيجى فى مراعاة قوافى الكلمات لكل من الجوهرى والفارابى نقوله أيضا عن مراعاة صدورها التى جعلاها عنوانا لفصول الأبواب ، فقد سبقهما إلى مراعاة هذه الصدور فى تنظيم الكلمات داخل المعجم أبو عمرو الشيبانى(١) فى كتابه « الجيم » فقد اكتفى فيه بمراعاة صدور الكلمات وبناء على ذلك قسمه إلى أبواب بعدد حروف الهجاء مرتبة على الترتيب الألفبائى الذى وضعه نصر بن عاصم وهو ألف با ، تا ، ثا ، جيم إلى أن ينتهى بالياء .

ولم يلاحظ — كما قلت — شيئا آخر سوى أوائل الكلمات التى أوردها فى الباب دون أى ترتيب فلو أننا طالعنا باب الألف(٢) — مثلا —

---

(١) اختلف فى تاريخ وفاته من سنة ٢٠٥ و سنة ٢٢٠ هـ انظر هذا الخلاف فى (محمد بن أحمد) إنباه الرواه القفطى أبو الحسن على بن يوسف ١/٢٢٠ — ٢٣٠ ، الأزهرى فى تهذيب اللغة المقدمة ١/٦ .

(٢) الجيم لأبى عمرو الشيبانى تح إبراهيم الأبيارى ١ / ٥٣ — ٥٤ .

ويعني به الهمزة لوجدنا مواده اللغوية تبدأ بالأوق ، فالمأفول فالأفيق ، فالأوق — مرة أخرى — فالأمروح ، فالمأموم . فالإيباءة ، فأنف ، فالمؤرب ، فالأخذ ، فالأثر ، فالأوبة الخ .

ونجد المواد اللغوية التي يبدأ بها باب الباء(١) هي : البهرة ، فالبركة ، فالبسيل ، فالبدغ ، فالبراح ، فالبنية ، فالباهل ، فالبطاح ، وهكذا يتأكد لنا أن أبا عمرو الشيباني لم يلاحظ في ترتيب كلمات معجمه « الجيم » سوى الحرف الأول » .

ومن هذا يتضح لنا أن مراعاة قوافي الكلمات قد أخذه الفارابي والجوهري من التقفية للبندنيجي ومراعاة صدور الكلمات قد أخذاه من الجيم لأبي عمرو الشيباني ، ولم يبق للجوهري من النظام المعجمي المتبع في الصحاح سوى مراعاة حشو الكلمات الذي يحدد المواد المعجمية داخل الفصول ، وحتى هذا الأمر لم يكن فيه الجوهري مبتكراً مبدعاً بل كان فيه متبعاً لخاله الفارابي الذي راعى حشو الكلمات في الترتيب المعجمي إلى جانب الأمور السابق بيانها .

---

(١) الجيم ١ / ٧٧ — ٧٨ .